الفصل الحادي عشر

المصطفى ﷺ يضاحك الأعراب

١- شدة في المسألة وصدق في العزم

٢- زراعة في الجنة!!

٣- تهدمت البيوت وانقطعت السبل .

٤- اللهم اغفر لي ولمحمد ولا تغفر لأحد .

٥- ما كنت أحسب أن رسول الله ﷺ يشبه الناس .

٦- مر لي من مال الله الذي عندك .

المصطفى ﷺ يضاحك الأعراب

لقد كان النبي ﷺ عليماً بنفوس أصحابه وأتباعه ، وكان ﷺ خبيراً بطباعهم ، قد ينفر الصحابة من طباع بعض الأعراب ؛ لكنه لا ينفر ، قد يضجر الصحابة من بعض أفعالهم ؛ لكنه لا يضجر .

قال الأعمش عن إبراهيم : قال : جلس أعرابي إلى زيد بن صوحان وهو يحدث أصحابه وكانت يده قد أصيبت يوم نهاوند فقال الأعرابي : والله إن حديثك ليعجبني وإن يدك لتريبني فقال زيد : ما يريبك من يدي إنها الشمال . فقال الأعرابي : والله ما أدري اليمين يقطعون أو الشمال ؟ فقال زيد بن صوحان : صدق الله ورسوله الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله : ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة:٩٧).

وقد جاء في الحديث عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « من سكن البادية جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى السلطان افتتن »[1].

قال ابن كثير : ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي لم يبعث الله منهم رسولا ، وإنما كانت البعثة من أهل القرى كما قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ (يوسف:١٠٩)، ولما أهدى ذلك الأعرابي تلك الهدية لرسول الله ﷺ فرد عليه أضعافها حتى رضي قال : « لقد هممت أن لا أقبل هدية إلا من قرشي أو ثقفي أو أنصارى أو دوسي »[2]. لأن

---

(١) رواه أحمد (٣٣٦٢) وقال محققو المسند : حسن لغيره . وأبو داود (٢٨٥٩) والترمذي (٢٢٥٦) وذكره الألباني في صحيح أبي داود (٢٤٨٦) .

(٢) رواه أحمد (٢٦٨٧) وقال محققو المسند : إسناده صحيح على شرط الشيخين . والترمذي (٣٩٤٥) وذكره الألباني في صحيح الجامع (٥١٤٦) .

هؤلاء كانوا يسكنون المدن : مكة والطائف والمدينة واليمن ، فهم ألطف أخلاقا من الأعراب لما في طباع الأعراب من الجفاء [1].

وقد أظهر أحد الأعراب هذه الغلظة القاسية كما تروي لنا أمنا عن عائشة قالت : قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا : أتقبلون صبيانكم ؟ قالوا : نعم . قالوا : لكنا والله ما نقبل . فقال رسول الله ﷺ : «أو أملك إن كان الله نزع منكم الرحمة» [2].

والقارئ لسيرة النبي ﷺ يرى حسن معاملته لهم ، ولا أدل على ذلك من موقفه ﷺ من الأعرابي الذي بال في المسجد ، وقد كان للأعراب مع النبي ﷺ وقفات وضحات ، ومن هذه الدعابات المرحة ، والأضحوكات الباسمة :

١- شدة في المسألة وصدق في العزم
٢- زراعة في الجنة!!
٣- تهدمت البيوت وانقطعت السبل .
٤- اللهم اغفر لي ولمحمد ولا تغفر لأحد .
٥- ما كنت أحسب أن رسول الله ﷺ يشبه الناس .
٦- مر لي من مال الله الذي عندك .

شدة في المسألة وصدق في العزم

عن ابن عباس رضي الله عنه قال : جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال : السلام عليك يا غلام بني عبد المطلب فقال : «وعليك» . قال : إني رجل من أخوالك من بني سعد ابن بكر ، وأنا رسول قومي إليك ووافدهم ، وإني سائلك فمشدد مسألتي إليك ،

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، ط دار الفكر بيروت ، ط ١٤٠١هـ ، ٢/ ٣٨٤ .

(٢) رواه مسلم في الفضائل (٢٣١٧) .

ومناشدك فمشدد مناشدتي إياك . قال : «خذ عنك يا أخا بني سعد» . قال : من خلقك وخلق من قبلك ؟ ومن هو خالق من بعدك ؟ قال : «الله». قال : فنشدتك بذلك أهو أرسلك ؟ قال : «نعم». قال : من خلق السموات السبع ، والأرضين السبع ، وأجرى بينهن الرزق ؟ قال : «الله». قال : فنشدتك بذلك أهو أرسلك ؟ قال : نعم . قال : إنا وجدنا في كتابك وأمرتنا رسلك أن نصلي في اليوم والليلة خمس صلوات لمواقيتها ؛ فنشدتك بذلك أهو أمرك ؟ قال : «نعم» . قال : فإنا وجدنا في كتابك وأمرتنا رسلك أن نأخذ من حواشي أموالنا فنردها على فقرائنا . فنشدتك بذلك أهو أمرك بذلك ؟ قال : «نعم» . ثم قال : أما الخامسة فلست بسائلك عنها ، ولا أرب[1] لي فيها ، ثم قال : أما والذي بعثك بالحق لأعملن بها ومن أطاعني من قومي ثم رجع . فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه ، ثم قال : «والذي نفسي بيده لئن صدق ليدخلن الجنة»[2].

هذا الحديث له شاهد في البخاري في الصحيح وليس فيه الضحك ، فعن أنس قال : «بينما نحن جلوس مع النبي ﷺ في المسجد ، دخل رجل على جمل ، فأناخه في المسجد ثم عقله ، ثم قال لهم : أيكم محمد؟ والنبي ﷺ متكىء بين ظهرانيهم ، فقلنا : هذا الرجل الأبيض المتكىء . فقال له الرجل : ابن عبد المطلب ؟ فقال له النبي ﷺ : «قد أجبتك» . فقال الرجل للنبي ﷺ : إني سائلك فمشدد عليك في المسألة ، فلا تجد علي في نفسك . فقال : «سل عما بدا لك» . فقال : أسألك بربك ورب من قبلك ، آلله أرسلك إلى الناس كلهم ؟ فقال : «اللهم نعم» . قال : أنشدك بالله ، آلله أمرك أن نصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة ؟ قال : «اللهم نعم» . قال أنشدك بالله ، آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة ؟ قال :

---

(١) لا حاجة .

(٢) رواه الدارمي والطبراني في الكبير (٣٠٦/٨) والأوسط (١٣٢/٣) . وقال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد : وفيه عطاء بن السائب ، وهو ثقة ؛ لكنه اختلط (٢٩٠/١) وصححه الألباني في الإيمان لابن أبي شيبة (٤) .

«اللهم نعم» . قال : أنشدك بالله ، آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا ؟ فقال النبي ﷺ : «اللهم نعم» . فقال الرجل : آمنت بما جئت به ، وأنا رسول من ورائي من قومي ، وأنا ضمام بن ثعلبة ، أخو بني سعد ابن بكر».[1]

ما زال رسول الله ﷺ يضرب لنا بين الفينة والأخرى المثل الأعلى في خلقه ؛ بل حسن خلقه ﷺ ، وكيف لا وقد قال له ربه : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم : ٤).

ولعل أبرز ما يظهر من أخلاق النبي ﷺ في هذا الحديث :

أولا : تواضعه ﷺ : حيث دخل السائل فنظر في الحضور ثم سأل : أيكم ابن عبد المطلب ، وهذا يعني أن النبي ﷺ لم يكن يتميز عن أصحابه في مجلس ، ولا كان الناس ينتصبون وقوفاً عنده ﷺ ، بل كان معهم كأنه واحد منهم .

ويظهر كذلك تواضعه ﷺ من عدم اعتراضه على مناداة السائل له باسمه [2].

ثانياً : حلمه ﷺ : حيث سمع كلام السائل على الرغم من اشتراطه الشدة في السؤال والغلظة في القول ، ولم يمنع هذا الشرط الرسول أن يسمع من الرجل ؛ بل سمع منه ، وأجاب على أسئلته ، وسُرّ بحديثه ، وأُعجب بحسن منطقه ، وضحك من صنيعه ؛ بل بشره بالجنة إن صدق .

وهذا السائل هو ضمام بن ثعلبة من بني سعد بن بكر ، وكان رسول الله ﷺ مسترضعاً فيها ، وكان أصحاب النبي ﷺ بعد نهيهم عن السؤال في ما لا فائدة فيه يتحرجون عن السؤال ، يقول أنس رضي الله عنه : نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء ، فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله ونحن نسمع» [3].

---

(١) رواه البخاري في العلم (٦٣) عن أنس .

(٢) أين هذا من أناس يتأفف أحدهم إن لم ينادى عليه بالشيخ أو الأستاذ أو الدكتور ..... إلخ ؟

(٣) رواه مسلم في الإيمان (١٢) .

قال النووي : وقوله «الرجل من أهل البادية» يعنى من لم يكن بلغه النهي عن السؤال ، وقوله «العاقل» لكونه أعرف بكيفية السؤال وآدابه ، والمهم منه وحسن المراجعة ، فإن هذه أسباب عظم الانتفاع بالجواب ، ولأن أهل البادية هم الأعراب ويغلب فيهم الجهل والجفاء ، ولهذا جاء في الحديث : «من بدا جفا[1]»[2].

وقد بدت رجاحة عقل ضمام حتى قال النبي ﷺ في رواية : «فقه الرجل» .

وكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول: ما رأيت أحسن مسألة ولا أوجز من ضمام، وعند أبي داود : قال الصحابة : فما سمعنا بوافد قوم كان أفضل من ضمام .

ومناداة ضمام رسول الله ﷺ بهذا الأسلوب قال العلماء : لعل هذا كان قبل النهى عن مخاطبته ﷺ باسمه قبل نزول قول الله عز وجل ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ (النور:٦٣). على أحد التفسيرين أي لا تقولوا : يا محمد ؛ بل يا رسول الله ، يا نبي الله ، ويحتمل أن يكون بعد نزول الآية ، ولم تبلغ الآية هذا القائل [3].

---

(١) جزء من حديث ونصه : «من بدا جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى أبواب السلطان افتتن ، وما ازداد عبد من السلطان قربا إلا ازداد من الله بعدا» رواه أحمد (٨٨٣٦) عن أبي هريرة ، وقال محققو المسند : هذا حديث ضعيف للاضطراب الذي وقع في إسناده ، وللحديث علّة أخرى : وهي تفرد الحسن بن الحكم به ، فقد دارت عليه هذه الأسانيد كلها ، وقد حسّن القول فيه يحيى ابن معين وأحمد بن حنبل فوثقاه ، وقال أبو حاتم صالح الحديث ، وغالى ابن حبّان في (المجروحين) فقال : يخطئ كثيرا ويهم شديدا ، لا يعجبني الاحتجاج بخبره إذا انفرد ، ثم ساق هذا الحديث ، إشارة منه إلى نكارته ، وكذا فعل الذهبي ، فعندما ترجم له في الميزان (٤٨٦/١) أورده أيضا . ورواه البيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٤٧) وفي الكبرى (١٠١/١٠) وقال الهيثمي : رواه أحمد والبزار ، وأحد إسنادي أحمد رجاله رجال الصحيح خلا الحسن بن الحكم النخعي ، وهو ثقة (٥/ ٤٤٣) وقال المنذري في الترغيب : رواه أحمد بإسنادين ، رواة أحدهما رواة الصحيح (٢٦٨/٢) وحسّنه الألباني في الصحيحة (١٢٧٢) .

(٢) انظر : شرح النووي ، ١/ ١٦٩ .

(٣) انظر : شرح النووي ، ١/ ١٧٠ .

بعض ما يستفاد من الحديث :

١- وجوب العمل بخبر الواحد ولا يقدح فيه مجيء ضمام مستثبتاً لأنه قصد اللقاء والمشافهة .

٢- وفيه نسبة الشخص إلى جده إذا كان أشهر من أبيه ؛ ومنه قوله ﷺ يوم حنين : أنا ابن عبد المطلب .

٣- جواز الاستحلاف على الأمر المحقق لزيادة التأكيد .[١]

٤- يجوز للعالم والمفتي والإمام الاتكاء في مجلسه بحضرة الناس ؛ لألم يجده في بعض أعضائه ، أو لراحة يرتفق بذلك ، ولا يكون ذلك في عامة جلوسه.[٢]

وقد أخذ المهلب ذلك من رواية أن ضمام بن ثعلبة لما قال : أيكم ابن عبد المطلب ؟ فقالوا : ذلك الأبيض المتكئ .

زراعة في الجنة!!

عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن النبي ﷺ كان يوماً يُحدّث ـ وعنده رجل من أهل البادية ـ أن رجلا من أهل الجنة استأذن ربه في الزرع[٣]، فقال له : « ألست فيما شئت ؟ قال : بلى ولكني أحب أن أزرع . قال : فبذر فبادر[٤] الطرف[٥] نباته واستواؤه واستحصاده فكان أمثال الجبال . فيقول الله : دونك يا ابن آدم فإنه لا يشبعك شيء» . فقال الأعرابي : والله لا تجده إلا قرشياً أو أنصارياً ، فإنهم أصحاب زرع ، وأما نحن فلسنا بأصحاب زرع . فضحك النبي ﷺ [٦].

---

(١) انظر : فتح الباري ، ١/ ١٥٣ .

(٢) انظر : المرجع السابق ، ١١/ ٦٧ .

(٣) أي أن يباشر الزراعة .

(٤) فسبق .

(٥) حركة جفن العين .

(٦) رواه البخاري في التوحيد (٧٥١٩) .

الجنة هي سلعة الله الغالية ، وهي غاية كل مسلم ، وأمل كل عبد مخلص ، إليها تهفو نفوس الأتقياء ، وتتطلع إليها قلوب الأولياء ، وقد أعد الله عز وجل لعباده فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وقد قال ربنا : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(السجدة:١٧).

وقد صوّر القرآن لنا صوراً من حياة أهل الجنة ونعيمهم ، ومن ذلك قوله تعالى ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝١٩ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١ وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَٰلِ اللُّؤْلُوِ الْمَكْنُونِ ۝٢٣ جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (الواقعة:١٧-٢٤). وقوله جلا شانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ (الحج:٢٣). وقوله : ﴿ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ (الإنسان:٢١).

كما صوّرت لنا السنة نعيم أهل الجنة ، ومن ذلك حديث جابر بن عبد الله يقول : قال رسول الله ﷺ : «يأكل أهل الجنة فيها ويشربون ، ولا يتغوطون ولا يمتخطون ولا يبولون ، ولكن طعامهم ذلك جشاء[1] كرشح المسك ، يلهمون التسبيح والحمد كما يلهمون النفس»[2].

وفي الحديث القدسي : عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «قال الله عز وجل : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ؛ مصداق ذلك في كتاب الله تعالى : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (السجدة:١٧)[3]».

قال المناوي في فيض القدير : في قوله تعالى في الحديث القدسي : «ما لا عين رأت ولا أذن سمعت» أي ما لا رأت العيون كلها لا عين واحدة ، فإن العين في

---

(١) صوت يخرج عند امتلاء المعدة بالطعام .

(٢) رواه مسلم في الجنة ونعيمها (٢٨٣٥) .

(٣) رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٤٤) ومسلم في الجنة ونعيمها (٢٨٢٤) .

سياق النفي تفيد الاستغراق ومثله قوله «ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت» ـ بتنوين عين وأذن ، وروي بفتحها ـ «ولا خطر على قلب بشر» معناه : أنه تعالى ادخر في الجنة من النعيم والخيرات واللذات ما لم يطلع عليه أحد من الخلق بطريق من الطرق ، فذكر الرؤية والسمع لأن أكثر المحسوسات تدرك بهما ، والإدراك ببقية الحواس أقل ، ولا يكون غالباً إلا بعد تقدم رؤية أو سماع ، ثم زاد أنه لم يجعل لأحد طريقا إلى توهمها بذكر وخطور على قلب ، فقد جلّت عن أن يدركها فكر وخاطر [1].

وقد يقول قائل بأن جبريل عليه السلام قد رآها في عدة أخبار ؛ وهذا يتعارض مع قوله تعالى : «ما لا عين رأت ولا أذن سمعت» قال المناوي في فيض القدير :

وأجيب بأنه تعالى خلق ذلك فيها بعد رؤيتها ، وبأن المراد عين البشر وآذانهم ، وبأن ذلك يتجدد لهم في الجنة كل وقت ، وبأن جبريل إنما ينظر ما أعد لعامتهم ؛ ولهذا قال بعض العارفين : المراد هنا التجليات الإلهية التي يتفضل بها الحق في الآخرة على خواصه لأنها نعم خالقيات ، وأما النعم الخلقيات التي أخبر بها النبي ﷺ في جنة النعيم فقد رأتها الأعين ، وسمعتها الآذان ، وخطرت على قلوب البشر و إلا لما أخبرها أحد ، وأما التجليات الإلهية التي يتفضل بها الحق في الآخرة على خواصه فما رأتها عين ، ولا سمعت حقيقتها أذن ، ولا خطرت على قلب بشر ، إذ كل ما يخطر بالبال أو يمر بالخيال فالله بخلافه بكل حال [2].

وقد أخبر الحديث عدم الشبع لابن آدم في الجنة ، وقد يتوهم هذا تعارضاً مع قوله تعالى في صفة الجنة:﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴾(طه:١١٨). وقد أجاب عن ذلك الحافظ ابن حجر فقال : وأجيب بأن نفي الشبع لا يوجب الجوع لأن بينهما واسطة وهي الكفاية ، وأكل أهل الجنة للتنعم والاستلذاذ لا عن الجوع[3].

---

(١) انظر : فيض القدير ، ٤/ ٤٧٣ ، ٤٧٤ .

(٢) انظر : فيض القدير ، ٤/ ٤٧٣ ، ٤٧٤ .

(٣) انظر : فتح الباري ، ١٣/ ٤٨٨ .

أما شبع الجنة فقد اختلف فيه ، قال ابن حجر : والصواب أن لا شبع فيها إذ لو كان لمنع دوام أكل المستلذ ، والمراد بقوله لا يشبعك شيء جنس الآدمي وما طبع عليه فهو في طلب الازدياد إلا من شاء الله تعالى [1].

وبالرغم من كل هذا النعيم فإن هناك عباداً كأنهم جبلوا على استعذاب الكد ، وحب العمل ، وتعلقوا بمهنهم ، فيتمنى أحدهم أن لو قام بعمله في الجنة كما كان يقوم به في الدنيا ، ولا يمنع الله هذا العبد من غايته ، ولا يحجب عنه أمنيته ، طالما أن في ذلك سعادته ، وأنه يتلذذ بذلك العمل .

وهذا الإنسان في عمله هذا لا يناله تعب ولن يعتريه نصب ، فليس له من زراعته إلا الاسم ، فلا يشبه عمله عمل الدنيا ، ولا تشبه زراعته زراعة أهل الدنيا ، ولا يشبه ثمره ثمر أهل الدنيا ، بل ليس له منه إلا تشابه الأسماء ، دون الحقيقة من الألفاظ .

ويظهر هذا الحديث تلطف النبي ﷺ بالأعراب ، وقد كان الجفاء والغلظة والجرأة من سمات الكثير منهم ، وحين يخبر النبي عن حال هذا الرجل من أهل الجنة فيزعم الأعرابي أن هذا ما إلا قرشياً أو أنصارياً ، فيضحك له النبي ﷺ مجاملة .

بعض ما يستفاد من الحديث :

١- أن كل ما اشتهي في الجنة من أمور الدنيا ممكن فيها .

٢- جواز وصف الناس بغالب عاداتهم .

٣- أن النفوس جبلت على الاستكثار من الدنيا .

٤- إشارة إلى فضل القناعة وذم الشره [2].

٥- أن من طبع الإنسان ، ألا يشبع وأنه يشتهي المزيد ، حتى ولو كان في الجنة .

---

(١) انظر : فتح الباري ، ١٣/ ٤٨٨ .

(٢) انظر : فتح الباري ، ٥/ ٢٧ .

تهدمت البيوت وانقطعت السبل

عن أنس بن مالك ﷺ قال : « كان النبي ﷺ يخطب يوم جمعة ، فقام الناس فصاحوا فقالوا : يا رسول الله قحط المطر واحمرت الشجر[1]، وهلكت البهائم ، فادع الله يسقينا ، فقال : اللهم اسقنا مرتين ، وايم الله ما نرى في السماء قزعة[2] من سحاب ، فنشأت سحابة وأمطرت ، ونزل عن المنبر فصلى ، فلما انصرف لم تزل تمطر إلى الجمعة التي تليها ، فلما قام النبي ﷺ يخطب صاحوا إليه : تهدمت البيوت وانقطعت السبل فادع الله يحبسها عنا فتبسم النبي ﷺ ثم قال : اللهم حوالينا ولا علينا ، فكشطت[3] المدينة فجعلت تمطر حولها ، ولا تمطر بالمدينة قطرة ، فنظرت إلى المدينة وإنها لفي مثل الإكليل[4] ».[5]

هذا الحديث عَلَمٌ من أعلام النبوة ، ودليل على صدق المصطفى ﷺ ، فقد دخل الأعرابي على النبي ﷺ بعد أن ساءت أحوالهم بانقطاع المطر ، فاحمر الشجر ، وتساقط الورق ، وهلكت البهائم ، ومات الزرع ، وجف الضرع ، فما لبث المصطفى ﷺ أن رفع يده إلى السماء ودعا ربه فاستجاب له .

والاستسقاء يعرف بأنه طلب السقيا من الله ، ويكون معناه طلب السقيا عند حصول الجدب وانقطاع المطر .

كيفية الاستسقاء :

وطلب السقيا من السماء يكون على أحد الوجوه الآتية[6] :

١- أن يصلي الإمام بالمأمومين ركعتين بغير أذان ولا إقامة ، في أي وقت غير وقت الكراهة ؛ يجهر في الأولى بالفاتحة وسبح اسم ربك الأعلى ، وفي الثانية

---

(١) تغير لونه إلى الحمرة من شدة اليبس .

(٢) السحابة الخفيفة .

(٣) انكشفت .

(٤) تاج الرأس ؛ والمراد أحاط المطر بالمدينة .

(٥) رواه البخاري في الاستسقاء (١٠٢١) .

(٦) انظر : فقه السنة ، سيد سابق ، ط دار الفكر ، ١/ ١٨٢ وما بعدها .

بالغاشية بعد الفاتحة ، ثم يخطب خطبة بعد الصلاة أو قبلها ، ثم يحل المصلون أرديتهم ، فيجعلون أيمانهم في شمائلهم والعكس ، ويستقبلوا القبلة ويدعوا الله متضرعين .

٢- أن يدعو الإمام في خطبة الجمعة ويؤمن المصلون على دعائه كما في الحديث الذي معنا .

٣- أن يدعو دعاء مجرداً في غير يوم الجمعة، وبدون صلاة في المسجد أو خارجه، كما في حديث ابن عباس قال : جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله جئتك من عند قوم لا يتزود لهم راع ولا يخطر لهم فحل[١]، فصعد النبي المنبر فحمد الله . ثم قال : «اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً مريئاً مريعاً طبقاً غدقاً عاجلاً غير رائث» ثم نزل فما يأتيه أحد من الوجود إلا قالوا : قد أحييتنا»[٢].

وتعد سنة الاستسقاء من السنن التي كادت أن تموت بين الناس ، ويندر أن يلجأ إليها إلا في أضيق الظروف[٣].

---

(١) أي لا يجد الراعي زاداً بسبب الجدب ولا يحرك الفحل ذنبه هزلاً .

(٢) رواه ابن ماجه في إقامة المساجد (١٢٧٠) وحسّن إسناده الدكتور بشار معروف في تحقيقه لابن ماجه ، وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه (٢٦٢) .

(٣) وللشيخ الشعراوي ـ رحمه الله ـ قصة طريفة حين كان في الجزائر قال : كان الرئيس بومدين قد انتهى من بناء سد اسمه «سد غرين» ، وذهب لافتتاحه . . وعملوا احتفالاً . . وحضرنا هذا الاحتفال . . ووقف الرئيس بومدين يخطب ويقول : الحمد لله . . عملنا «سد غرين» ، وهذا السد سيحجز كذا مترًا مكعبًا من المياه . . وبذلك يمكنكم أن تقوموا بري زراعاتكم ، سواء أمطرت السماء أو لم تمطر!

ولم تعجبني عبارة «سواء أمطرت السماء أو لم تمطر» ، فقلت لعبد العزيز بوتفليقة وزير الخارجية الجزائري في ذلك الوقت : «يا سي عبد العزيز ، قل للرئيس بومدين إن هذا الكلام خطأ ، ليس فقط من الناحية العقائدية التي تلغي المشيئة ، بل من الناحية العلمية أيضًا ، لأنه إذا لم تمطر السماء فما الذي سيحجزه هذا السد ؟ ! السد يحجز مياهًا . . والمياه من المطر . . فإذا لم تمطر . . فما الذي سيحجزه هذا السد ؟ !» .

وذهب بوتفليقة وأبلغ الكلام للرئيس بومدين . . وشاء الله بعد أسابيع من كلام الرئيس بومدين أن يحصل جفاف ، فلما حصل الجفاف . . قالوا نصلي صلاة الاستسقاء . . وقد استقبل الناس --

بعض ما يستفاد من الحديث :

عدد الحافظ ابن حجر من الحديث فوائد نذكر منها :

١- جواز مكالمة الإمام في الخطبة للحاجة .

٢- جواز القيام في الخطبة وأنها لا تنقطع بالكلام ولا تنقطع بالمطر .

٣- جواز سؤال الدعاء من أهل الخير ومن يُرجى منه القبول وإجابتهم لذلك .

٤- جواز تكرار الدعاء ثلاثا .

٥- جواز إدخال دعاء الاستسقاء في خطبة الجمعة والدعاء به على المنبر ولا تحويل فيه .

--الدعوة لصلاة الاستسقاء استقبالين : الناس المتدينون المؤمنون أصحاب الثقافة الدينية كانوا يؤمّلون فيها ، وينظرون إليها باعتبارها من نسكِ الدين ، وأن الله سبحانه وتعالى شرعها لوقت الفزع هذا .

أما الناس الآخرون أصحاب الثقافات غير الدينية ، بل والمعادية للدين ، قالوا في استهزاء : «اعملوا صلاة الاستسقاء وشوفوا حتعمل إيه الصلاة بتاعتكم دي!» .

ولما أبلغوني أن الرئيس بومدين يريد أن يقيم صلاة الاستسقاء في الجامع الكبير بعد يومين . . قلت لزميلي الشيخ أبو الصفا : « إحنا واقعين في مطب . . وربنا يخرجنا منه على خير » . . ولن يخرجنا من ذلك إلا أن نفزع إلى الله من هذه اللحظة . . وأن نصلي لله . . وأن نطلب منه ألا يفضح أهل دينه أمام هؤلاء الذين لا يعرفون كيف ينظرون إلى دين الله .

وجاء يوم صلاة الاستسقاء ، وجلسنا في الجامع الكبير ومعنا وزير الأوقاف الجزائري ننتظر حضور الرئيس بومدين .

جاء الرئيس بومدين . . ودخل المسجد . . وقبل أن يهم بالجلوس قلت لوزير الأوقاف : « قل للرئيس بومدين يصلي ركعتين لتحية المسجد» . . وأضفت : « إحنا جايين هنا نشحت من ربنا . . بنقول يا رب وبنفزع إليه ، فقل له يصلي ركعتين لله تحية للمسجد .

وذهب وزير الأوقاف للرئيس الجزائري وأبلغه الرسالة . . فوقف وصلى ركعتين ، ثم صلينا صلاة الاستقساء . . وقعدنا ساكتين . . وطالت العقدة . . وطال السكوت ، فقلت لأحد المشايخ الذين يجلسون إلى جانبي : « إحنا قاعدين كده ليه دلوقت ؟ موش نقوموا نروّحوا ؟ » فقال لي : « اسكت . . اسكت! » فقلت له : « فيه إيه ؟ قال : إنت موش داري ؟ الدنيا بتمطّر . . بِتشْتِي . . » فقلت : « صحيح!! » قال : « أيوه . . وراحوا علشان يجيبوا » مظلة لكي يخرج بها الرئيس بومدين! فقلت : الحمد لله . . الحمد لله . . ولن أخرج من هنا من المسجد الكبير ، إلا بعد صلاة المغرب . . الحمد لله ربنا سترها معنا . . » .

٦- الأدب في الدعاء حيث لم يدع برفع المطر مطلقا لاحتمال الاحتياج إليه .
٧- أن من أنعم الله عليه بنعمة لا ينبغي له أن يتسخطها لعارض يعرض فيها ، بل يسأل الله رفع ذلك العارض وإبقاء النعمة .
٨- أن الدعاء برفع الضرر لا ينافي التوكل .
٩- جواز تبسم الخطيب على المنبر تعجبا من أحوال الناس .
١٠- جواز الصياح في المسجد بسبب الحاجة المقتضية لذلك .
١١- جواز اليمين لتأكيد الكلام .
١٢- وقد استدل به على رفع اليدين في كل دعاء [١].

اللهم اغفر لي ولمحمد ولا تغفر لأحد

عن أبي هريرة قال : دخل أعرابي على رسول الله ﷺ المسجد وهو جالس فقال : اللهم اغفر لي ولمحمد ولا تغفر لأحد . قال : فضحك رسول الله ﷺ ثم قال : « لقد احتظرت[٢] واسعاً » ثم ولى الأعرابي ؛ حتى إذا كان في ناحية المسجد فشج[٣] ليبول ، فقال الأعرابي بعد أن فقه في الإسلام : فقام إليّ رسول الله فلم يؤنبني ، ولم يسبني ، وقال : « إنما بني هذا المسجد لذكر الله والصلاة وإنه لا يبال فيه ، ثم دعا بسجل[٤] من ماء فأفرغه عليه » .[٥]

وفي رواية أخرى جاء أعرابي فأناخ راحلته ، ثم عقلها ، ثم صلى خلف رسول الله ﷺ ، فلما صلى رسول الله ﷺ أتى راحلته فأطلق عقالها ثم ركبها ، ثم

---

(١) انظر : فتح الباري ، ٢/٥٠٦ ، ٥٠٧ باختصار .
(٢) ضيقت .
(٣) فرج ما بين رجليه ليبول .
(٤) الدلو الكبير الممتلئ بالماء .
(٥) رواه أحمد (١٠٥٣٣) وقال محققو المسند : حديث صحيح . وابن ماجه . وذكره الألباني في صحيح ابن ماجه (٤٢٨) .

نادى : اللهم ارحمني ومحمداً لا تشرك في رحمتنا أحد ، فقال رسول الله ﷺ : «أتقولون هذا أضل أم بعيره ؟ ألم تسمعوا ما قال ؟ !» قالوا : بلى ، قال : «لقد حظّرت رحمة واسعة ؛ إن الله عز وجل خلق مائة رحمة ، فأنزل رحمة يتعاطف بها الخلق جنها وإنسها وبهائمها ، وأخّر عنده تسعاً وتسعين رحمة ، أتقولون هو أضل أم بعيره ؟»[1].

وهذه رائعة أخرى من روائع رسول الله ﷺ في توجيه الناس ، فلم يرض ﷺ أن يكون الدعاء له وحده دون أصحابه وهم يسمعون ، وإنما اعترض النبي ﷺ على دعاء الأعرابي لأنه ضيق رحمة الله ، وقد قال تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (الأعراف:١٥٦). وقد علّل ابن بطال : إنكاره ﷺ على الأعرابي : لكونه بخل برحمة الله على خلقه ، وقد أثنى الله تعالى على من فعل خلاف ذلك حيث قال : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ (الحشر:١٠)[2].

قال الحافظ في الفتح : حديث أبي هريرة أيضا في قصة الأعرابي الذي قال : اللهم ارحمني ومحمداً وأنه الذي بال في المسجد وأنه ذو الخويصرة اليماني ، وقيل الأقرع بن حابس[3].

إنه لم يقع في منكر واحد ؛ وإنما وقع في محظورين :

الأول : حظره رحمة الله عليه وعلى النبي ﷺ .

الثاني : بوله في المسجد أمام الناس .

---

(١) رواه أحمد (١٧٧٩٩) وقال محققو المسند : إسناده ضعيف ، ورواه الحاكم (١/٥٦) والطبراني في الكبير(١٦٦٧) مختصراً . وقال الحافظ الهيثمي في المجمع : رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح غير أبي عبد الله الجشمي ولم يضعفه أحمد (١٠/٢٢٤) .

(٢) انظر : فتح الباري ، ١٠/ ٤٣٩ .

(٣) انظر : المرجع السابق ، ١٠/ ٤٣٩ .

وتبدو حكمة النبي ﷺ ظاهرة أمام الأعين في كلا الأمرين . أما حبس الرجل رحمة الله على النبي وعليه ، فقد أخبره النبي بأنه ضيّق واسعا ، وأما الثانية فقد أمر النبي أصحابه أن يتركوه حتى يكمل بولته ، ففي الصحيحين عن أنس بن مالك : أن أعرابيا بال في المسجد فقاموا إليه ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تزرموه ، ثم دعا بدلو من ماء فصب عليه[1] » .

هكذا ؛ (لا تُزرموه) أي : لا تقطعوا عليه بوله ، ويبدو أن الرجل بعد أن شرح الله صدره للإسلام وفقه في دين الله أدرك سعة صدر النبي صلى الله عليه وحكمته ، فقال : (فقام إليّ رسول الله فلم يؤنبني ، ولم يسبني) .

ولا يعقل أن يؤنبه النبي ﷺ في مثل هذا الموقف ، لأنه أدرك عقلية الرجل وطبيعته ، تلك الطبيعة التي تصرف من خلالها ، فهو أعرابي عاش جل حياته في الصحراء ، بين صخورها وجبالها ، وسهولها ووديانها ، لا يرى من حي سوى سبع أو ذئب ، وإن خفّ الأمر فجمل أو كبش . وإن غلبته حاجته ما عليه إلا أن يرفع ثوبه ليبول كما تبول الحيوانات من حوله ، بعد أن أفسدت البداوة طبعه وذوقه ، وأماتت فيه حسه .

وهنا تكون الحكمة النبوية العظيمة ، التي توازن بين المصلحة والمفسدة ، بل بين المفسدة الأكبر والمفسدة الأقل ، فإذا كان في بوله في المسجد مفسدة ؛ فإن في قطع بولته مفسدة أكبر ، لما يترتب على ذلك من تنجس مكان أكبر ، فضلا عن حنق وغيظ يملآن قلب صاحب البولة التي حبست . قال ابن حجر معللا نهي النبي أصحابه عن قطع بولة الأعرابي : للمصلحة الراجحة وهو دفع أعظم المفسدتين ، باحتمال أيسرهما ، وتحصيل أعظم المصلحتين بترك أيسرهما[2].

بعض ما يستفاد من الحديث :

١- حلم النبي ﷺ ورأفته وحسن خلقه .

---

(١) رواه البخاري في الأدب (٦٠٢٥) ومسلم في الطهارة (٢٨٤) .

(٢) انظر : فتح الباري ، ١/٣٢٥ .

٢- أن حسن الخلق يأسر القلوب ، وقد قال الأعرابي : (فقام إليّ رسول الله فلم يؤنبني ، ولم يسبني) .

٣- مشروعية الرفق بالجاهل حتى يتعلم .

٤- تأثر الإنسان بالبيئة التي ينشأ فيها .

ما كنت أحسب أن رسول الله ﷺ يشبه الناس

عن أبي رمثة قال : انطلقت أنا وأبي إلى رسول الله ﷺ فلما كنا في بعض الطريق فلقيناه ، فقال لي أبي : يا بني هذا رسول الله ﷺ قال : وكنت أحسب أن رسول الله ﷺ لا يشبه الناس ، فإذا رجل له وفرة[١] وبها ردع[٢] من حناء عليه بردان[٣] أخضران ، قال : كأني أنظر إلى ساقيه ، قال : فقال لأبي :«من هذا معك؟» قال : هذا والله ابني . قال : فضحك رسول الله ﷺ لحلف أبي عليّ ، ثم قال : «صدقت . أما إنك لا تجني عليه ولا يجني عليك» قال : وتلا رسول الله ﷺ : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ (الإسراء:١٥) [٤]» .

يتوهم البعض أن رسول الله ﷺ خلق من غير ما خلق الناس ، ويستشهد البعض بأحاديث ما صحت ولن تصح ، بل هي أحاديث موضوعة ، وأكاذيب شنيعة ، وعليها يبني البعض : أن رسول الله ﷺ خلق من نور ، وهذا مخالف لصريح القرآن وصحيح السنة ، والحق سبحانه يقول لنبيه ﷺ ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ (الكهف:١١٠)

---

(١) شعر الرأس إذا وصل إلى شحمة الأذن .

(٢) أثر الطيب .

(٣) رداء يلبس فوق الثياب .

(٤) رواه أحمد (٧١٠٩) وقال محققو المسند : إسناده صحيح على شرط مسلم ، وأخرجه الدارمي (١٩٩/٢) وابن حبان (٥٩٩٥) .

وهذا الصحابي أبو رمثة كان يتوهم قبل أن يرى رسول الله ﷺ أنه لا يشبه الناس ، وكان قد جعل لرسول الله ﷺ في مخيلته صورة أخرى ، فلما رأى النبي ﷺ وجد أن صورته الحقيقية تخالف الصورة التي كانت في ذهنه ومخيلته .

وحين وصف هند بن أبي هالة رسول الله ﷺ قال في وصفه كما يقول الحسن ابن علي قال : سألت خالي[١] هند بن أبي هالة التميمي ـ وكان وصافاً ـ عن صفة رسول الله ﷺ ، وأنا أشتهي أن يصف لي منها شيئا أتعلق به ، فقال : كان رسول الله ﷺ فخماً مفخماً[٢]، يتلألأ وجهه تلألؤ[٣] القمر ليلة البدر ، أطول من المربوع[٤]، وأقصر من المشذب[٥]، رجل الشعر[٦] إذا تفرقت عقيقته فرق[٧] ، وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفره[٨]، أزهر اللون[٩]، واسع الجبين ، أزج الحواجب[١٠]، سوابغ في غير قرن بينهما[١١]، عرق[١٢] يدره الغضب[١٣]، أقنى العرنين[١٤]، له نور يعلوه[١٥] يحسبه من لم يتأمله أشم[١٦]، كث اللحية[١٧] سهل

---

(١) الحسن هو ابن علي وأمه فاطمة ﷺ ؛وهند بن هالة يعد خال الحسن لأن أمه أخت السيدة خديجة فهو ابن خالة فاطمة .

(٢) عظيماً في نفسه معظماً مهاباً في نفوس الغير .

(٣) يضيء وجهه بالنور كالقمر ليلة أربعة عشر .

(٤) الوسط .

(٥) الطويل البائن الطول مع النحافة .

(٦) ليس جعداً و كان مسرح الشعر بطبيعته .

(٧) الشعر إذا نبت ، والمعنى : أن شعره يفرق نصفين وحده دون تمشيط إن كان صغيراً .

(٨) وإن لم يفرق وحده فرقه بنفسه وهذا باختلاف الشعر طولاً وقصراً .

(٩) أبيض اللون مشرقه .

(١٠) طويل الحواجب مع تقوسهما وغزارة شعرهما .

(١١) الحاجبان كاملان غير ملتقيين .

(١٢) كثير العرق .

(١٣) يكثره ويحركه الغضب .

(١٤) العرنين المعطس والقنا فيه : أي طول ودقة أرنبته .

(١٥) لأنفه من حسنه وبهائه .

(١٦) ارتفاع القصبة .

(١٧) كثيفة كثيرة الأصول بغير طول .

الخدين[١]، ضليع الفم[٢]، أشنب[٣] مفلج الأسنان[٤] دقيق المسربة[٥]، كأن عنقه جيد دمية في صفاء الفضة[٦]، معتدل الخلق[٧]، بادناً متماسكاً[٨] سواء البطن والصدر[٩]، عريض الصدر، بعيد ما بين المنكبين[١٠]، ضخم الكراديس[١١]، أنور المتجرد[١٢]، موصول ما بين اللبة[١٣] والسرة بشعر يجري كالخط، عاري اليدين والبطن مما سوى ذلك[١٤]، أشعر[١٥] الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر، طويل الزندين[١٦]، رحب الراحة[١٧]، سبط القصب[١٨]، شثن الكفين والقدمين[١٩]، سائل الأطراف[٢٠]، خمصان الأخمصين [٢١]، مسيح القدمين[٢٢]، ينبو عنهما الماء[٢٣]، إذا زال زال

---

(١) ليس فيهما نتوء ولا ارتفاع.

(٢) عظيم الفم وواسعه.

(٣) أبيض الأسنان مع بريق وتحديد فيها.

(٤) مفرج ما بين الثنايا.

(٥) دقيق شعر ما بين الصدر والسرة.

(٦) معتدل العنق مع البياض كالعقد في عنق الدمية.

(٧) معتدل الصورة الظاهرة والباطنة.

(٨) ضخماً ومع ضخامته متماسكاً غير مترهل.

(٩) بطنه غير بارز فهو كصدره، وصدره عريض فهو كبطنه.

(١٠) المنكب: مجمع عظم العضد والكتف، فهو بعيد ما بينهما.

(١١) عظيم رؤوس العظام.

(١٢) أبيض ماتجرد من الثياب.

(١٣) اللبة: المنحر وهو أسفل الحلق، والمعنى أن الشعر الواصل بين اللبة والسرة دقيق كالخط.

(١٤) أي ليس عليهما شعر.

(١٥) كثير الشعر.

(١٦) الزند: عظم الذراع.

(١٧) واسع اليد حساً وعطاء، أي كثير الجود.

(١٨) القصب: جمع ومفرده قصبة وهو كل عظم فيه مخ، والمعنى ليس في ذراعيه ولا فخذيه ولا ساقيه نتوء.

(١٩) في أنامله غلظ بلا قصر.

(٢٠) ممتد الأطراف.

(٢١) مبالغة والمعنى شديد تجافي أخمص القدم عن الأرض.

(٢٢) أملسهما مستويهما.

(٢٣) يسيل عليهما بسرعة.

قلعاً[1]، وتخطى تكفؤاً[2]، ويمشي هوناً[3] ذريع المشية[4]، إذا مشى كأنما ينحط من صبب[5]، وإذا التفت التفت معاً[6]، خافض الطرف[7]، نظره إلى الأرض[8] أطول من نظره إلى السماء[9]، جل[10] نظره الملاحظة ، يسوق أصحابه[11] يبدر[12] من لقيه بالسلام»[13].

وهنا نرى النبي ﷺ وقد حدد في هذا الحديث : المسؤولية الفردية لكل إنسان ، فكما أنه لا تأكل نفس رزق أخرى ، فكذلك لا تحاسب نفس بذنب أخرى ، ولا يعاقب امرئ بجريرة غيره ، وصدق ربنا القائل ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾

(الأنعام:١٦٤)

قال القرطبي : والآية نزلت في الوليد بن المغيرة ، كان يقول : اتبعوا سبيلي أحمل أوزاركم . وقيل : إنها نزلت ردا على العرب في الجاهلية من مؤاخذة الرجل بأبيه وبنيه وبجريرة حليفه[14].

---

(١) رفع رجليه رفعاً ظاهراً متداركاً إحداهما بالأخرى .

(٢) يمشي مائلاً إلى الأمام .

(٣) يمشي بلين ورفق .

(٤) سريع المشية .

(٥) أي منحدر من الأرض .

(٦) لا يلوي عنقه بل يلتفت كله .

(٧) خافض البصر .

(٨) في حال السكوت .

(٩) لأنه دائم المراقبة كثير الفكر .

(١٠) معظم .

(١١) يقدمهم أمامه .

(١٢) يبدأ

(١٣) رواه الطبراني في الكبير(٢٢/ ١٥٦) ، والبيهقي في شعب الإيمان (٢ / ١٥٥) ، والترمذي في الشمائل ، ورمز له السيوطي في الجامع الصغير بالصحة . وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه الطبراني وفيه راو لم يسم (٢٧٣/٨) . وذكره الألباني في ضعيف الجامع (٤٤٧٠) .

(١٤) انظر : القرطبي ، ١٥٧/٧ .

والمقصود بالمسؤولية الفردية ما يكون في الآخرة ، أما في الحياة الدنيا فقد يعاقب الإنسان بذنب غيره إن رضي به ، قال القرطبي : ويحتمل أن يكون المراد بهذه الآية في الآخرة ، وكذلك التي قبلها فأما التي في الدنيا فقد يؤاخذ فيها بعضهم بجرم بعض ، لا سيما إذا لم ينه الطائعون العاصين ، كما في حديث أبي بكر في قوله : ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ (المائدة:١٠٥)[١] وقال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ (الأنفال:٢٥)، وقالت زينب بنت جحش : يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم إذا كثر الخبث[٢].[٣]

وضحك النبي ﷺ في هذا الحديث إنما كان تعجباً من يمين الصحابي ، فإن رسول الله ما سأله تهمة ولكن سأله استفهاماً واستيضاحاً ، وقد قال تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ ﴾ (البقرة:٢٢٤).

وجدير بكل مسلم أن يقلل من الأيمان قدر المستطاع ، وألا يلجأ إلى القسم إلا عند الحاجة ، وإن أقسم على أمر ووجد البر في ترك اليمين حنث وكفر عن يمينه ، وقد جاء في الحديث :« من حلف فرأى غيرها خيراً منها فليأتها وليكفر عن يمينه[٤] ».

بعض ما يستفاد من الحديث :

١- تواضع النبي ﷺ لأصحابه .

٢- أنس الصحابة بالنبي ﷺ ، وحرصهم على لقياه .

---

(١) حين قام في الناس خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا أيها الناس أنكم تقرءون هذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ (المائدة:١٠٥) وإنا سمعنا رسول الله ﷺ يقول : « إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقابه » « رواه أحمد عن أبي بكر ، وهو أول حديث في المسند ، وقال محققو المسند : إسناده صحيح على شرط الشيخين،ورواه أبو داود (٤٣٣٨) والبزار (٦٥) وأبو يعلى (١٣٢) وابن حبان(٣٠٤).

(٢) رواه البخاري في الفتن (٧٠٥٩) ومسلم في الفتن (٢٨٨٠) .

(٣) انظر : القرطبي ، ٧/ ١٥٧ .

(٤) رواه مسلم في الأيمان (١٦٥٠) .

٣- ترسيخ مبدأ المسؤولية الفردية .

٤- بشرية النبي ﷺ ومساواته للناس في الخلقة ، وإن كان له القدح المعلى في حسن الصورة وجمال المنظر .

مُرْ لي من مال الله الذي عندك

عن أنس ﷺ قال : « كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة[١] شديدة ، فنظرت إلى صفحة عنق رسول الله ﷺ وقد أثر بها حاشية الرداء من شدة جذبته ، ثم قال : يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك . فالتفت إليه فضحك ﷺ ، ثم أمر له بعطاء[٢] ».

الحلم صفة محبوبة وخلق حميد ، وقد أخبر النبي ﷺ كما في الصحيح أن الله يحب هذا الخلق ، وقد حض النبي ﷺ عليه ورغب فيه ، وكان ذلك طوراً بالكلام ؛ وطوراً بالفعل والتنفيذ ، فتراه يقول ﷺ : « ليس الشديد بالصرعة ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب »[٣] .

ويأتيه رجل يوماً فيقول : يا رسول الله أوصني فلا يزيده النبي ﷺ على أن يقول له : « لا تغضب » وحين يكرر الرجل سؤاله ، فلا يزيده النبي ﷺ عن قوله لا تغضب »[٤] .

ويقول ﷺ : « ما من جرعة أعظم عند الله من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله »[٥] .

---

(١) جذب وشد بقوة .

(٢) رواه البخاري في اللباس (٥٨٠٩) ومسلم في الزكاة (١٠٥٧) .

(٣) رواه البخاري في الأدب (٦١١٤) ومسلم في البر والصلة (٢٦٠٩) .

(٤) رواه البخاري في الأدب (٦١١٦) .

(٥) رواه ابن ماجه في الأدب (٤٧١٩) وذكره الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٣٧٧) .

ويقول ﷺ : « من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله سبحانه على رؤوس الخلائق حتى يخيره من الحور العين ما شاء »[1].

ولله در الشاعر حين قال :

سألزم نفسي الصفح عن كل مذنب ... وإن كثرت منه إلي الجرائم
فما الناس إلا واحد من ثلاثة ... شريف ، ومشروف ، ومثل مقاوم
فأما الذي فوقي فأعرف قدره ... وأتبع فيه الحق والحق لازم
وأما الذي دوني فأحلم دائماً ... أصون به عرضي وإن لام لائم
وأما الذي مثلي فإن زل أو هفا ... تفضلت إن الفضل بالفخر حاكم

وقال آخر :

أحب مكارم الأخلاق جهدي ... وأكره أن أعيب وأن أعابا
وأصفح عن سباب الناس حلماً ... وشر الناس من يهوى السبابا
ومن هاب الرجال تهيبوه ... ومن حقر الرجال فلن يهابا

لكن ينبغي أن نعلم :

١- أن كظم الغيظ له مواضع .

٢- وأن الحلم له مواطن .

٣- وأن دفع الغضب ليس مطلقاً .

فإن العبد إذا استغضب بما يغضب الله عز وجل ورسوله وجب عليه الغضب ، وقد قال الشافعي : من استغضب فلم يغضب فهو حمار .

وفي وصف عائشة للنبي ﷺ قالت : « ما انتقم رسول الله لنفسه في شيء قط إلا أن تنتهك حرمة الله ، فينتقم لله تعالى »[2].

ومن ثم فقد كان النبي ﷺ يغضب حتى يصير وجهه كحب الرمان حمرة وغضباً إذا استعدي على حقوق الله ، أو انتهكت حرمات الله .

---

(١) رواه أبو داود في الأدب (٤٧٧٧) وذكره الألباني في صحيح أبي داود (٣٩٩٧) .
(٢) رواه البخاري في المناقب (٣٥٦٠) ومسلم في الفضائل (٢٣٢٧) .

وفي الصحيحين عن أبي مسعود عقبة بن عمرو البدري : أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال : إني لأتأخر عن صلاة الصبح من أجل فلان ؛ مما يطيل بنا ، فما رأيت النبي غضب في موعظة قط أشد مما غضب يومئذ ، فقال : « يا أيها الناس إن منكم منفرين ؛ فأيكم أم بالناس فليوجز ، فإن من ورائه الكبير والصغير وذا الحاجة »[1].

وحين قدم ﷺ على عائشة من سفر وقد سترت سهوةً[2] لها بقرام[3] فيه تماثيل هتكه وتلون وجهه ثم قال : « يا عائشة أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة الذين يضاهون خلق الله »[4].

ولما اجترئ أسامة بن زيد وكلم الرسول متشفعاً في المرأة المخزومية التي سرقت غضب على أسامة وقال : « أتشفع في حد من حدود الله تعالى »[5].

ويدخل يوماً ﷺ المسجد فيرى نخامة في القبلة فيشق ذلك عليه حتى رؤي في وجهه ، ثم قام فحك النخامة بيده[6].

ويظهر غضبه واضحاً جلياً حين يتطاول أبو ذر على أخيه بلال قائلاً له : يا ابن السوداء فيغضب النبي ﷺ ويقول له : « أسببت فلانا ؟» . قلت : نعم . قال : « أفنلت من أمه ؟» قلت : نعم . قال : « إنك امرؤ فيك جاهلية »[7].

ولعلاج الغضب ودفعه سنّ النبي ﷺ أموراً ، منها :

١- أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم وفي الحديث أن النبي قال : « إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه هذا : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم »[8] .

---

(١) رواه البخاري في الأدب (٦١١٠) ومسلم في الصلاة (٤٦٦) .
(٢) سهوة : كالصفة تكون بين يدي البيت .
(٣) ستر رقيق .
(٤) رواه البخاري في اللباس (٥٩٥٤) ومسلم في اللباس والزينة (٢١٠٧) .
(٥) رواه البخاري في الحدود (٦٧٨٨) ومسلم في الحدود (١٦٨٨) .
(٦) رواه البخاري في الأدب (٦٠٥٠) ومسلم في الأيمان (١٦٦١) .
(٧) رواه البخاري في الأدب (٦٠٥٠) ومسلم في الأيمان (١٦٦١) .
(٨) رواه البخاري في الأدب (٦٠٤٨) ومسلم في البر والصلة (٢٦١٠) .

٢- الوضوء : وفي الحديث « إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان خلق من نار ، وإنما تطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فليتوضأ »[١].

٣- تغيير الهيئة : وفي الحديث « إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس ؛ فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع »[٢].

ويعد هذا الحديث الذي معنا دليلاً على حلم النبي ﷺ وصبره ، ولعل فيه صورة حية ، ودليلاً عملياً على عفوه ﷺ ومقابلته الإساءة بالإحسان ، والتطاول بالعفو والغفران ، وليت الدعاة والولاة ، والعلماء والأمراء ، يقتدون ﷺ بالنبي في مثل هذا الصنيع .

لقد جذب الأعرابي النبي كما يقول جبذة شديدة ، وفي رواية :« حتى رجع النبي في نحر الأعرابي » .

وقد أثرت الجبذة في عنق النبي ﷺ وفي رواية « حتى انشق البرد وذهبت حاشيته » .

بعض ما يستفاد من الحديث :

١- احتمال الجاهلين والإعراض عن مقابلتهم ودفع السيئة بالحسنة .

٢- إعطاء من يتألف قلبه .

٣- العفو عن مرتكب كبيرة لا حد فيها بجهله .

٤- إباحة الضحك عند الأمور التي يتعجب منها في العادة .

٥- فيه كمال خلق رسول الله وحلمه وصفحه الجميل .[٣]

---

(١) رواه أبو داود في الأدب (٤٧٨٤) وذكره الألباني في ضعيف أبي داود (١٠٢٥).

(٢) رواه أبو داود في الأدب (٤٧٨٢) وذكره الألباني في صحيح أبي داود (٤٠٠٠).

(٣) انظر : صحيح مسلم بشرح النووي ، ١٤٧/٧ .